مقابلة أدبية مع : الدكتور جمال بن الشيخ

من «البنيوية» الى «البنيوية المحورية»

(منهج في دراسة الادب العربي بنيوياً)

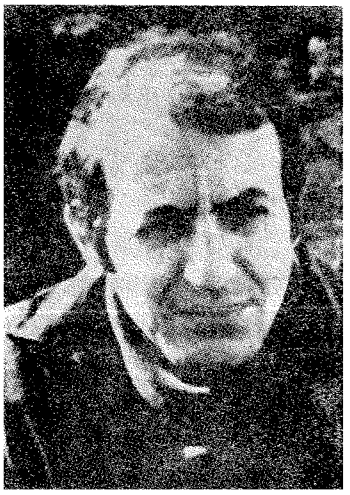

حديث أجراه :

ماجد السامرائي

حين نجلس الى الدكتور جمال بن الشيخ ـ الاديب والباحث الجزائري ـ لتحاوره بغية « الثقافة الحقيقية » ، التي يبدو انه لا يساوم عليها ، تجد نفسك ، أمام واحد من المثقفين الجادين حقا ، الذين يمكن ان تعود بنتاج ثقافتهم هذه الى « الثقافة العربية المعاصرة » ، بالرغم من انه يكتب بالفرنسية ..

فهو مثقف جاد ، له منظوره الواضح ، ومنهجه في طريقه التفكير ، وفي تقديم نتائج هذا « التفكير » من خلال معطيات بارزة في النقد ، او الدراسة (الادبية النقدية التحليلية) ، منطلقا ، في هذا كله ، من قناعة ، ذاتية وفكرية ، « بان الثقافة لا يمكن ان تحرك من الخارج ، بل من الداخل » .

انه واحد من المثقفين العرب الذين يطرحون اليوم أسلوبا في التفكير ، ويقدمون طريقة في الدراسة ..

وهو واحد من « البنيويين العرب » ، يجعل لهذه « المدرسة » خصوصية ، بما يطرح فيها من أبعاد جديدة في أساليب الدراسة وطرائق البحث .

ان السؤال الذي يطرح ، أمام عمل جمال بن الشيخ ، هذا ، هو :

ـ أين نقف ، نحن ، اليوم من معطيات الثقافة العالمية ، ومن انجازاتها المنهجية ؟

قد يكون هذا هو « محور » الحوار معه حول « البنيوية » . وقد يكون جمال بن الشيخ هنا ، وفي امتداد عمله في الحقل النقدي ـ التحليلي يقدم « النموذج » لما ينبغي أن تكون عليه عمليات : الاخذ ، والعطاء ، والتفاعل الحي الخلاق . فهو في الوقت الذي يتفاعل فيه مع « معطيات مدرسية » جديدة ، مستفيدا من انجازاتها المنهجية ، ومن طرائقها ، يحرص على استقلال « علمه الجديد » ، ضمن سعي جاد منه الى تدعيم الاسس الموضوعية والمناهج الصحيحة له ، متلمسا صلاته بأدبه ، متخذا له طرائق تنسجم وروح الابداع العربي وجوهره .

وهكذا يتولد من « البنيوية » ، وينسلخ عنها ، ما يسميه جمال بن الشيخ : « البنيوية المحورية » أو « البنيوية التفريعية » . فهي بذات الوقت الذي تعتبر فيه احدى ثمار البنيوية ، كما عرفتها الدراسات الخاصة بذلك ، وفي فرنسا بالذات ، فانه يضيف اليها « منهجيته » . ذلك ان للنص الذي يتعامل معه (وهو نص عربي) مقوماته الخاصة به ، والتي تتطلب «أسلوبا» في تحليل روابط مفرداته ، وعباراته ، والكشف عن عناصره . ومن هنا تتكون « منهجيته الجديدة » .

على هذا ، وانطلاقا منه ، يمكن أن نتخذ من « جمال بن الشيخ » نموذجا للمثقف العربي الذي يقيم تفكيره ، وبالتالي اتجاهه (النقدي والدراسي) ، على أساس نوع من التوازن الحي والمتفاعل ما بين ثقافتين : الثقافة العربية ، بمعطياتها الابداعية ، حيث الجذور وأصالة التكوين .. والثقافة الغربية ، بمعطياتها المنهجية ، ورؤيتها المتعمقة ، التي يتحول بها ، عن تمثل واستيعاب واع ، الى « ثقافته الاصل » ، بهدف تشكيل موقف نقدي ، ومنهجي جديد ، يوازن ما بين «الاصل»

و «المعطى» ، دون أن يمحـــو « شخصيته التاريخية » كمثقف عربي ، أو يلاشيها في أبعاد الآخرين .

وبقدر ما يتخذ هذا الحوار معه مـــن هذه الافكار « خلفية » ، فانه يقدم « نموذجا جادا » لفكر فيه الكثير من سمات الأصالة :

*** في البداية ، أود التعرف عـلى مكانـة « البنيوية » فـي الدراسات المعاصرة ، وفي الدراسات الادبية بشكل خاص ..**

ـ ينبغي هنا أن نلاحظ ملاحظة بسيطة ، هي أن البنيوية لم تطبق على الادب الا مـن جوانب محدودة . البنيـــوية لها تاريخ معـروف .. فمنبع البنيوية هـو « الانثربولوجية » . والذي ابتكـر فكرة البنيوية هـو ليفوستوس ، الانثربولوجي الفرنسي المشهـــور . بعد هذا كانت هناك بعض المحاولات حاول فيها بعض العلماء ان يطبقوا مبادىء البنيوية على الادب مثلا .

فكرة البنيوية ـ فيما يخص الادب طبعا ـ ترتكـز على مبدأ أساسي بسيط ، هو : كل مجموعة من العناصر ترتكز على حركية علائقية . والمهم هو أن نحلل العناصر كعناصر .. ولكن الاهم هو أن نحلل العـــلاقات المبنية ما بينها . فالعناصر هـــــذه تكوّن مجموعة ، ولهـذه المجموعة حركية خاصـــة .. تركيب خاص . فالمهم ، بالتحليل ، أن نبحث عن هـــذه العلاقات بدقة .. والا تجاهلنا حقيقة المجموعة . وهنا أضرب مثلا بما كـانت عليه التحليلات من قبل ، والتـي كانت تختلف حسب المواضيع ، حيث يتركز البحث في جانب واحد ويترك الجوانب الاخرى . أما من أراد أن يطبق مبادىء البنيوية فان عليه ، كشرط مطلق ، أن يهتم بجميع جوانب الواقع الادبي .. بأن ينظر الى المجموعة من جميع الجوانب ، فلا يعزل جانبا عن جانب ، لان لكل وظيفـة خاصة تؤثر على التركيب . فاذا اخذنا ، مثلا ، الجـانب العروضي واكتفينا به فاننا سنصل ـ بطبيعة الحال ـ الى معرفـة كافية بالجـــانب العروضي . وهكذا بالنسبة لبقيـة الجوانب .

وهذا ذاته يطبق على القصة ، على الرواية ، عـلى المسرحية ، وعلى كل فنـــون الادب . ينظر الى الانتاج الادبي كمجموع ، سواء أكان رواية أم شعرا .. الخ . فمن اكتفى بجانب واحد فانه يتجاهل الجوانب الاخرى من جهة ، ولا يدرك ، بمعرفة كافيـــة ، هذا الجانب نفسه ، من جهة أخرى .. لان لهـــذا الجانب علاقات باطنة ، وعلاقات مع العناصر الاخرى . فمن أحاط بجانب واحد ، صارفا النظر عن الجـــوانب الاخرى ، تجاهل الحقيقة ككل . وهذه هي النتيجة لتطبيق البنيوية على البحوث الادبية : أن ينظر المحلل الـــى النتاج المعروض امامه (سواء كان مسرحية ، أم قصة ، أم رواية) ككل . هذا هو المبدأ الاساس .

وبطبيعة الحـــال فان القضية مهمـــة ، وليست سهلة .. لان البنيوية تقتضي مبدأ اوليا هو : ان كـل واقع يكون « كلا ثابتا » ، لان كـل مجموعة مركبة مـن عناصر تتركز على ثبات العناصر ، وعلى ثبات العلاقات المبنية ما بين هذه العناصر . فبعض الاتجاهات ترفض هذا المبدأ .. مثلا : ما وقع من اختلاف ما بين النظرية الماركسية في التحليل الادبي والنظريـــة البنيوية .. فالنظرية ترفض ، ولا تقبل ، على وجه الاطلاق ، وجود تراكيب ثابتة لا تتغير في البنيان . فبعـد أن تطـورت البنيوية من جهـــة ، وتطورت النزعة الماركسية فـــي التحليل الادبي .. وتطورت نزعات أخرى ، استطعنا أن نصل الى حل لهذه المشكلة بالكيفية التالية :

برأيي ، ان وجود تراكيب بنيوية ضمن الواقع امر لا شك فيه .. ولكن هـــذه البنى تتغير حسب تغير العلاقات . فكلما تغيرت علاقة من العلاقات المبنية مـا بين العناصر يتغير الكـــل . وهذا ما سميتـــه أنا : « المحورية » . واضرب مثـــلا من الشعر .. فالشعر يتمحور حسب محاور متنوعة . فمفهوم المحورية ، على هذا النحو ، ساعد في حل المشكلة النظرية التي اصطدم بها الماركسيون والبنيويون .

*** حبذا لو نتـــوقف أكثر عنـد مفهـــوم « المحورية » ، لنتبينه علـى نحو أكثـر وضوحا ..**

ـ اعني بالمحورية ما يلي :

انظر مثلا « الدلالات » ، أو مفهوم « المعاني » ـ لان مفهوم الدلالات أوضح وأدق مـن مفهوم المعاني . المعنى مفهوم شامل على عناصر مختلفـة .. والبنيوية تقتضي التمييز بين وحدات مركبة (بكسر الكاف) للكل . ومن هنا فأنا ، عادة ، أستعمـــل « الدلالات » ـ والدلالات تتشابك وترتبط حسب اتجاهات معنوية معينة . كـل شاعر ، مثلا ، يعبر عـــن نفسه حسب اتجاهات .. حسب نزعات . فالدلالات ، ثم المعاني ، تكوّن مجموعات، ومجموعات تحتية حسب النزعات الاساسية التي تكوّن فكرة الشاعر . ومن هنـــا فان الفرق ما بين التحليل الوصفي ـ التكراري للاغراض (مثلا : فكرة الموت عند المتنبي . الزمان عند المتنبي . الحب عند المتنبي.. الخ، من الاغراض المبعثرة المنثورة) .. التحليـــل البنيوي يجمع ما بين جميع المعاني ...

من هنا تكون المحوريـة هي الحركة ، أو الحركات الاساسية التي ترتكز عليها البنى .

فاذن ، كل شاعر له محورية خاصة ، أي تركيب خاص ما بين الدلالات التي تعبّر عما يريـد أن يقول . فمثلا اذا نظرنا الى المتنبي نجد ان له « محورية » تعتمد على ثلاثة محاور : محور كيـــاني ، محور وجودي ، ومحور كوني .. وكل المعاني الموجودة في ديوان المتنبي تتركب حسب هذه الحركات .

*** هل لك أن تقدم مثلا على ذلك ؟**

ـ .. خذ محوريـة المتنبي فيما يخص الزمان . فانها تعبر عن الوعي المساوي بمعناه عند « لوكاتش » مثلا . الوعي المساوي عند المتنبي ناتج عن اصطدام مـا بين محور حياتي . وجودي . عمودي .. ومحور زمني. قاطع . افقي . ففكره الموت منبعها مثل هذا الاصطدام ما بين : فكرته للزمان . وفكرته للحياة .

اذن ، المحورية هي التي تمنعنا مـن التبعثر .. هي التي تركب جميع الدلالات .. جميع العناصر .

وهنا اود ان اشير الى مسالـة مهمة : ان عند المستشرقين صورة عجيبة عـن الشعر العربي .. فهم يقولون أن الشعر العربي (معتمدين في هذا على مبـدا قديم لم يفهموه) كل بيت فيه قائم بذاته ، مستقل . وهو وان كان كل بيت يعبر عن معنى تام . الا انه لا يدل على وجود فصل ما بين المعاني . لقد اعتمدوا على هـذا المبدا ليقولوا : ان الشعر العربي مجزأ . مبعثـر ، وان الفكر العربي هو نفسه غير قادر عـلى تنظيم دلالته .. فهـو فكر مبعثر ، غير مسلسل . لا يصـل الا الـى التعميمات . وأظن ان التحليل البنيـوي يساعد على توضيح التركيب الباطني للدلالات عند الشعراء ، وعند سواهم .

*** من خلال كل هذا .. ما الذي أضافتـه الدراسات البنيويـة الى الدراسـات المعاصرة ، برأيك ؟**

ـ أولا ، انها خلقت مفاهيم تطبيقية .. اي مفاهيم تساعدنا على فهم حقيقة الادب . مثلا : في عرض المعنى لمفهوم الدلالات .. مفهوم المستويات التعبيرية .. مفهوم المحاور الدلالية .. مفهوم الفرق ما بين « النص الظاهر » و « النص المخفي » ..

كلما قرأنا نصا نجد فيه :

١ ـ نصا دلاليا ظاهرا ..

٢ ـ وتحت النص الدلالي : نص تاريخي ..

٣ ـ وتحت النص التاريخي : نص ايديولوجي .

ومن هنا أظن ان مفهوم التركيب .. مفهوم تشابك العناصر .. مفهـوم تكوين المجموعات والمجموعـات التحتية .. الخ ، من المفاهيم التطبيقية قد ساعدتنا في التمييز ما بين المستويات ، وأشارت الى علاقات مهمـة تجاهلها التحليل من قبل ، اذ انه كان يتنبه الى العناصر في ذاتها أكثر من انتباهه الى العلاقات .

غير اننا الآن اجتزنا المرحلة . مثلا : اذا نظرنا الى تحليل « لوسيان غولدمان » الذي يحـاول أن يبين العلاقات الموجودة ما بين التراكيب الاجتماعية ـ الثقافية، والتراكيب النصية الباطنة ، وجدنا ان هـذه العلاقات ليست ميكانيكية ما بين البنيوية الاجتماعية ـ الثقافية ـ الاقتصادية ، والبنيان الادبي لنص ما ..

غير انني هنا اطلب اليك ان تضيف الى «البنيويه» ما أسميـه انا « البنيوية التفريعية » . أو « البنيويـة المحورية » .

*** طيب : لو أستخدمنا « البنيوية المحورية » كمنهج في دراسة الأدب العربـي (وانت نفسك أشرت الى هذا قبل قليل ، مؤكدا جدواه) في تحليل معطيات هذا الادب . فبايه نتائج جديده سنخرج ، برأيكم ؟**

ـ بنتائج عديده . ومختلفة ..

اظن ان من يريد ان يقارن بيـن ادبنا الكلاسيكي . بمعنى عام . وأدبنا الحديث . فان « البنيوية المحوريه » تساعدنا على تبين الفرق بين الانتاجين ..

ففي ما يتعلق بالشعر يقال : ان هذا شاعر حديث لانه ترك التقاطيع العروضية . وهذا شاعر كلاسيكي لانه يستعمل التقاطيع العروضية . ونحن نعلم ان «الحداثة» ليست متعلقـه بالتقاطيع والعروض . فكثيرا ما نجد شاعرا مقلدا يترك التقاطيـع العروضية ويكتب بالشكل الذي نسميه « الشعر الحر » . وكثيرا ما نجد شاعرا يعبر عن الحـداثة وهو يلتزم البنيان العروضـي الكلاسيكي ..

ومـن هنا . اذا ما قارنا بين المحوريات ، فاننـا سنبين الاختلاف ما بين المحـورية التي كانت تحرك الانتاج الكلاسيكي . والمحورية (أو عدم المحورية) التي تحرك (أو لا تحرك) الانتاج الحديث . فالحداثة مسألة « النص الباطني » وليست مسألة « النص الظاهر » . ومن هنا ، علينا أن نخرج عـلى ما أشاعته الكثير مـن الكتب التي وضعت في هذا الموضوع ، وأكثريتها بحث في الجزئيات . وفي الظواهر فقط . دون أن نصل الى صميم الموضوع . وصميم الموضـوع هو : ان الشاعر الحديث ليس شاعرا حديثا لانه يقـول أشياء جديدة . انما أظن انه حديث لانه ابتكر عـلاقات جديدة ما بيـن الاشياء .. لانه غير المحورية الباطنية للامور .

*** أفهم من هذا انك تطرح هنا مفهوما خاصا لمعنى الحداثة ؟..**

ـ لفهم الحداثة ...

*** وهو مفهوم يختلف ، في تفاصيل كثيرة فيه ، عن المفهوم السائد في عديد مـن الكتابات التي تتكلم عن الشعر وحداثته ؟**

ـ طبعا .. لان أكثرية هذه الكتابات تطبق عـلى الشعر مقاييس مسبقة . فأنا أحترم النص احتراما تاما ومطلقا ، ولا أستطيع أن أحكم على شعرنا بالقول : ان هذا حديث وهذا غير حديث .. هـذا مقلد وهذا غير مقلد ، الا بعد أن أكتشف المباني الباطنية . فالمحوريـة هي التي تشير الى الحداثة أو الى التقليد . وأذكر انني وأدونيس تكلمنا في هذا طـويلا . وأظن لو ان أدونيس

استعمل أساليب البحث البنيوي ، لكان عبّر عما عبّر عنه في كتبه السابقة ، وبالخصوص في « مقدمة للشعر العربي » .. وبالذات حين رأى اننا ينبغي أن نضع الفرق ما بين « صاحب البدعة » و « صاحب الابداع » . وأنا وصلت الى نفس النتيجة .. غير ان هذا الزمني أن ألجأ الى أساليب أخرى للبحث لاصل الى النتائج .

*** أود هنا أن أعرف شيئا أكثر عن عملك في اطار هذه المدرسة ..**

ـ بعد ان ألفت كتابا حول « الشعرية الادبية » وصلت الآن الى تحليل الشعر الحديث ، أو ما يسمى « الشعر الحديث » . فأنا ، حتى الآن ، أكتفي بهذه التسميات المعممة (اي الشعر التقليدي والشعر الحديث) ، ومرادي هو أن أبحث عن بناء الشعر الحديث .. الانتاج الحديث ، وأقارنه ، من بعد هذا ، مع بناء الشعر القديم .. لسبب واحد ، هو انني اكتشفت عند بعض شعرائنا القدماء محورية تعبر عن صداقه ...

*** مثلا ؟**

ـ مثلا عند شعراء الكوفة .. وفي موضوع الخمريات .. التي مهدت الطريق لأبي نواس . لقد وجدت شعراء مخمولي الذكر (مثلا : ابو الهندي) يعبرون عن أفكار حديثة ..

ان فكرتي بسيطة في هذا الموضوع ، وهي : ان الحداثة ليست في مسألة زمان .. أي لعلنا نعثر على شعراء عبّروا عن أفكار حديثة في القرون القديمة ، وليس كل شاعر معاصر حديث . لا أظن ان كل شاعر حي هو شاعر حديث . الحداثة أمر آخر ..

وأنظر الى الآداب الاجنبية ذات النظرة . فبعض الشعراء القدماء عبّروا عن حداثة ، وغيروا شيئا . وفهموا شيئا من العلاقات المخفية ما بين الاشياء . أما بعض الشعراء المعاصرين فانهم لم يبتكروا شيئا .

*** أريد ، هنا ، أن أسأل عن الكيفية التي تتناولون بها قصيدة ما ، وتخضعوها لهذا المنهج، أو لهذا الاسلوب في الدراسة والنظر ؟**

ـ هنا لا بد من أن أتخذ من دراستي عن المتنبي مثلا :

أخذت قصيدة للمتنبي ، ونظرت فيها ، فوجدت فيها مستويات مختلفة : البناء القالبي ، الذي يعبّر عن القالب العروضي .. ووضحت التراكيب الظاهرة (السطحية) والتراكيب الباطنية (المخفية) ، والعلاقات الموجودة ما بين التقاطيع العروضية والتقاطيع الكلامية .. ووصلت الى ايضاح العلاقة ما بين التقاطيع العروضية والتسلسل النحوي ، ووزعت هذه العناصر حسب محور عمودي هو : محور التقاطيع ، ومحاور افقية ، وهي ثلاثة : الكلامية ، النحوية ، والايقاعية الصوتية ..

أما الجزء الثاني ، فقد بحثت فيه عن التركيب : تركيب الدلالات ، وبينت فيه محورية القصيدة ..

كل هذا أوصلني الى فهم « المحورية العلاقية » ما بين العناصر .

*** وهل هذا هو الاسلوب الذي تتبعه مع جميع النصوص الشعرية ، أم أن كل نص يفرض طريقته الخاصة به في البحث ؟**

ـ لقد جزت مراحل عديدة قبل ان أصل الى هذه المرحلة . كان يتحتم عليّ أن ادقق الاساليب ، وادقق المفاهيم قبل ان أقوم بهذه المحاولة . فهذه هي المحاولة الاولى التي أقدم فيها تحليلا كليا لقصيدة .

*** وفي السابق ، على أي نحو كان يتم عملك النقدي ـ التحليلي ؟**

ـ في السابق دققت المفاهيم . وجربت الاساليب، وقد وصلت الى هذه المحاولة الاولى . وأظن ـ وهو مجرد ظن ـ انني أستطيع أن أحلل نصا أوليا (قصيدة) بشرط ان لا أستخرج من القصيدة الا ما هو موجود فيها . وأن لا أعمم الا بعد تحليل القصائد الاخرى من المجموعة (وهي القصائد التي نظمها المتنبي في صباه) .. وحللت القصائد الاخرى فأكدت لي وجود محورية خاصة للمتنبي .

لقد طرحت عليّ سؤالا مهما . هو : هل ان هذه المنهجية تطبق على جميع النصوص ؟

أظن انها تطبق على جميع النصوص ، لان التركيب الباطني (يختلف طبعا من الشعر الى الرواية الى المسرحية .. ولكن) يفترض وجود محورية خاصة .. وهذا يسهل عليّ حل مشكلة نظرية مهمة ، وهي : العلاقة ما بين الايديولوجية والكتابة . وهذه مشكلة صعبة (في أوروبا ، مثلا ، قامت معارك حول ذلك : ما هي الكيفية التي تتم بها قراءة ايديولوجية للنص . وهي التعبير عن اتجاه خاص للافكار .. أو بعبارة أخرى : الايديولوجية هي المنهج العام الذي يحرك المعاني، ويرتبها ، ويوزعها) . فالايديولوجية الماركسية طبقت على النصوص قراءة خاصة ، وجعلت علاقة شبه ميكانيكية ما بين المضمون والايديولوجية ، حسب مبدأ ميكانيكي ، أو شبه ميكانيكي . (مثلا ، وان كان هذا المقال غير ذي قيمة ، قولها : ان كل كاتب رجعي نتاجه رجعي ، وكل كاتب تقدمي نتاجه تقدمي) ..

وفي رأيي اننا قبل أن نقوم بقراءة ايديولوجية للنص ينبغي أن نعترف بأمر مهم ، هو : ان الايديولوجية ليست مبنى ، كما انها ليست مضمونا .. الايديولوجية

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

مقابلة ادبية مع جمال بن الشيخ

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

هي حركة علاقية .. الايديولوجية هي التي تغربل ما بين العلاقات وتختار علاقة خاصة تجعلها ما بين العناصر .

ان من يرتكز على أحكام اعتباطية ، أو أحكام مسبقة لن يقوم بقراءة ايديولوجية ، انما يقدم النص أمام محكمة ، وحسب معاييره الخاصة يحكم عليه . ولا أجد أية قيمة لمثل هذه القراءة . على العكس : بعد أن نكتشف العلاقة المحورية للنص ، وكيف تتركب العناصر ، وكيف تتركب المعاني والدلالات ، ونبحث عن العلاقات الموجودة ما بين العناصر ، تظهر القيمة الايديولوجية للنص .

*** اذن هناك عناصر لقاء ما بين القراءتين : القراءة الايديولوجية للنص ، والقراءة البنيوية المحورية ؟**

ـ نعم .. وقد اقتضى هذا مني سنوات طويلة ..

في بداية الامر كنت ، أنا الآخر ، أطبق أحكاما مسبقة . كنت أعتمد على آراء شاعر مثلا ، وأقول : ان هذا الشاعر بما انه تقدمي وثوري فان شعره تقدمي . وهذه أحكام ليست لها قيمة . انما قبل أن نحدد من هو الشاعر التقدمي ، ومن هو الشاعر الرجعي ، علينا أن نتعرف على الصور .. على الادوات البيانية ، وهل تحتوي على قيمة ايديولوجية أم لا ..

فاذا قبلنا مفهوم « المحورية » ، وحللنا العلاقات التركيبية الباطنة ، وفهمنا لعب العناصر ضمن المجموعة ، فان هذا يرشدنا الى فهم العلاقة الحقيقية الموجودة ما بين الآثار الادبية والنظام الثقافي ـ الاجتماعي ـ الاقتصادي .

أما من يريد أن يجد علاقة مباشرة ما بين هذا النظام وتركيب النص ؛ فانه سوف لن يستطيع تجنب المزالق والاخطاء .

*** وما هو وجه الاختلاف عندك ، بين النتائج التي تصل اليها « البنيوية المحورية » ، والنتائج التي تصل اليها سواها من المدارس الاخرى ؟**

ـ يظهر لي ان اكثرية التحليلات (ولا اذكر هنا الا النقد العربي) ؛ مع ما نجده فيها من قيمة ، وتحليلات ، وبحوث ترتكز على أساليب علمية ، وعلى المراجع ، وغيرها من الاساليب ، فانها ، على ما اظن ، تكتفي بالجزئيات .. تفصل بين عناصر النص الادبي ، وتأخذ منه . فالناقد العربي يتصرف بالنص كما يريد ...

*** انه « ناقد انتقائي » ، في الغالب ..**

ـ نعم .. اذ نراه يجزىء الاعمال الادبية الى موضوعات (الموت عند السياب .. المرأة في ..... البنية الاجتماعية عند نجيب محفوظ ... وهكذا) . اننا ، مثلا ، اذا أخذنا فكرة الموت عند السياب نجد ان لها علاقة بفكرته عن الزمان . لها علاقة بالحياة الباطنة . لها علاقة بالكل . ومن هنا تكون هذه التحليلات : تارة وصفية تكرارية (أي ان الناقد يكرر ما وجده في النص فيقدمه بكيفية أخرى ، فلا اختلاف ما بينهما : النص المنقود والنص الناقد) .. وتارة يكون تحليليا مفصلا للواقع . وأظن ان من الشروط المطلقة هو أن نحترم النص ككل ، قبل اي شيء ، وأن لا نصل به الى تأويلات ..

أما البنيوي ، فانه يحترم العلاقات الموجودة في النص ، لانه يعالج النص ككل .

*** أستفسر هنا : حين يتناول الناقد البنيوي « نصا » .. هل يستعين ببعض « العوامل المساعدة » على فهمه (حياة كاتبه مثلا . ما يعرفه عنه . الاستدلال من خلال فكر الكاتب) ، أم انه يكتفي بالنص بذاته فيحلله كمادة مكتفية بذاتها ؟**

ـ في مرحلة أولى يكتفي بالنص .. ولكن بعد أن ينتهي من تحليل البناء السطحي ، أو الظاهر ، يصل الى مستويات أعمق .. وهذه المستويات الاعمق تقتضي منه أن يجعل هناك صلة ، أو أن يكتشف الصلة الموجودة في النص ما بين حياة الشاعر ونصه ، لا أن يطبق معلوماته عن حياة الشاعر على القصيدة (فهذا تصرف مفسد للقصيدة) .

أنظر للفتوة عند المتنبي . اذا أخذنا كلمة « الفتى » عند المتنبي ، في قوله :

« فتاعة تعلم اني الفتى الذي تخطى صروف الزمان » .

فالمستوى الاول فيها هو « المستوى القاموسي » . تأخذ « لسان العرب » فتجد فيه ان «الفتى» هو الشاب الكامل ؛ القوي ، الجسيم .. لا أكثر . (هنا أكتفي بهذه الدلالات القاموسية ، على المستوى الاول) ..

على اني أجد ان كلمة « الفتوة » في سياق التاريخ العربي لها معان ترتكز على الاصل ، ولكنها تتشعب وتتوازى . ومن هنا فانا بحاجة ملحة لمعرفة معاني الفتوة عند العرب معرفة دقيقة .. ومعانيها التاريخية ، على وجه الدقة . ولكن لا أدخلها أنا في النص ؛ وانما أستخرجها ..

اذن ، العلاقة ما بين حياة الشاعر والنص موجودة في النص .. لا تطبق على النص من الخارج . زد على هذا ، ان النص ، وبالخصوص « النص الشعري » ، له حركية ذاتية ، باطنية ما بين « الادوات » و « الصور »

و « النزعات الباطنة » للشاعر ؛ كأن الكلام يقوم بوظيفة تحريكية خاصة ، باطنة . فهل ان معرفة حياة المتنبي تنبهنا الى جميع هذه الجوانب الموجودة في القصيدة ؟ لا أظن . لا علاقة ميكانيكية ما بين حياة المتنبي وما قاله في الشعر . والا فسنقوم بتفسير سطحي لقصائد المتنبي . لا يهمني الوضع الاجتماعي الذي عاشه المتنبي .. الذي يهمني هو « مفهوم العز » عند المتنبي، كما عبّر عنه في قصائده ..

وهذا يمنعنا من اي بحث تقليدي وصفي يبدأ بالحياة ، ليحللها جميعا ؛ ويتتبعها ..

*** انما يمكن أن تكون معرفة الحياة هذه عاملا مساعدا في اضاءة النص ..**

ـ طبعا .. ولكن بعض الدلالات لها حياة خاصة في اطار القصيدة .. لا صلة ما بينها وبين حياة الشاعر . وهذا ما يبرهن على انه شاعر ؛ لانه جاء بأمور جديدة في قصيدته .

*** هنا يخطر لي أن أستوضحك شيئا عن نظرة البنيوية الى الشعر كمفهوم ...**

ـ البنيوية لا تستعمل كلمة « مفهوم » . المصطلح المستعمل هو « الوظيفة الشعرية » . وفي البنيوية ، بصفة عامة ، هناك تحديد بسيط لذلك : الوظيفة الشعرية التي تشتمل على جميع أساليب التعبير الشعري هي التي تجعل من الكلام شعرا ..

المدرسة البنيوية تقول : ان الشعر « كلام » من جهة ، و « مواضيع » من جهة أخرى . وينبغي ، أولا ؛ أن نحترم الصلة ما بين « البنى الكلامية » و « البنى الدلالية » ، لان هذا يجعل هناك صلة ما بين « الكلام » و « الرؤيا » . فمن أراد أن يبرز هذه الرؤيا من خلال الكلام يجب أن يكتفي بجميع « الوظائف » * . فالبنيوية تقول : ان الشعر مبني على عدد محدود ، أو غير محدود ، من هذه الوظائف التي تركب ما بين العناصر . وهذا هو ما يخلق الشعر ويميزه عن أي تعبير أدبي آخر.

تذكر التحديد القديم للشعر ، الذي عبّر عنه « قدامة بن جعفر » : « الشعر هو الكلام الموزون المقفى الدال على معنى » ... « يدل على معنى » : لا أكثر ولا أقل . فاذا أردنا أن نحدد الشعر ، ونصل الى حقيقته ، لا كجوهر، وانما « ككلام » و « كرؤيا » ، أظن ان البنيوية تساعدنا على تحديد مفهوم الشعر بكيفية أخرى .

*** هناك مدرسة اخرى لها موقعها اليوم في الدراسات المعاصرة ، وهي المدرسة التي يمثل « لوسيان غولدمان » احد اعلامها البارزين ، والتي تطرح نظريتها في « علم اجتماع الادب » . لا أدري : ما هو موقفك ، كبنيوي ، من اطروحات هذه المدرسة ؟**

ـ ينبغي هنا أن نؤكد ان « لوسيان غولدمان » حاول أن يجعل هناك صلة ما بين البنيوية وعلم الاجتماع، وسماها : « لو سوسيولوجي جونتيك » .. أي انه حاول أن يأخذ فكرة البنيوية ويدخلها في اطار بحث اجتماعي .

آثار « لوسيان غولدمان » مهمة ، واحترمها احتراما تاما . الا انه يجعل هناك علاقة ميكانيكية ما بين التراكيب الاجتماعية والاقتصادية والتراكيب الادبية ، محاولا أن يبين عند « أندريه مالرو » مثلا ، وعند مؤلفين آخرين ، هذه العلاقة . الا انني أظن انه فشل ..

*** لماذا ؟**

ـ لان العلاقة ليست علاقة ميكانيكية ؛ وكلما أراد المحلل أن يوضح هذه العلاقة تجابهه صعوبات نظرية وتطبيقية كثيرة ..

انني أظن ان هذه العلاقة موجودة ؛ وان غايتي البعيدة هي أن أدرك طبيعة هذه العلاقة ما بين البنيان الاجتماعي ـ الاقتصادي والبنيان الادبي . ولكنني ، في نفس الوقت ، أظن اننا لن نصل الى كشف لهذه العلاقة الا بعد أن نكشف عن التراكيب الداخلية للنص الادبي ، كنص أدبي . فحتى الآن لم أقرأ تحليلا يوضح بشكل تام ان التركيب الادبي الخاص لشاعر ، أو لروائي ، أو لمسرحي له علاقة مباشرة بالتراكيب الاجتماعية .. انما نجد علاقات جزئية في التعابير .. في اختيار الالفاظ ، وفي بعض المعاني . غير ان هذا على الصعيد الاول ..

وحتى اذا ما قبلنا بالمبدأ القديم الذي يرى ان كل نظام ثقافي ـ اقتصادي يخلق طرازا معينا من التعبير الادبي ؛ فان علينا أن ننظر حتى نخلق أساليب جديدة لتوضيح هذه العلاقة . فحتى اليوم ؛ كل ما قدم من بحوث في هذا الميدان هي بحوث غير مقنعة .. انا شخصيا غير مقتنع بها ..

ولكن ينبغي عليّ هنا أن أضيف الى ما قلت ما أراه من ان العلاقة ما بين التراكيب الاجتماعية ـ الاقتصادية والآثار الادبية علاقة متحققة ؛ غير انها مخفية ، ومجزأة ..

*** كبنيوي .. على اي نحو تتلمس وجود هذه العلاقة .. وكيف تستفيد منها في اضاءة النص ، وفي فهمه وتحليله ؟**

ـ لم أصل الى هذا الحد . انا أعترف ، بكل تواضع ، انني في مرحلة أولى من بحثي . قلت لكم انني بدأت بالمفاهيم والاساليب .. ومن بعد هذا حاولت أن أجعل بحثي في اطار منهجي دقيق . والآن أظن (وربما

---

* الوظائف : مصطلح من مصطلحات « الهيكلية البنيوية » ، وهي تعني : تركيب العلاقات النوعية الخاصة من العلاقات التي تركب ما بين العناصر .

هذا خطأ مني) انني وصلت الى حد فهم النص ككل ، وانني أستطيع ان أوضح العلاقات المخفية في النص .

*** أريد أن أسأل هنا عما تختلف به عن زملائك من مشايعي هذه المدرسة ، في فرنسا بالذات .. وما اذا كنت أضفت جديدا في بحوثك ودراساتك في هذا الاتجاه ؟**

ـ اذا كنت أضفت شيئا الى دراساتهم فانني أضفت « فكرة المحور » . أظن ان فكرة « المحورية » غير موجودة في البحوث التي قدمت في هذا الاتجاه حتى الآن ..

*** وماذا كانت ردود فعل الباحثين الآخرين عليك في هذا ؟**

ـ في فرنسا الآن المدارس الادبية تهجرت في ما أسميه أنا « جزئيات » .. تدقق في الاساليب .. تنظر في الاتجاهات .. غير انها تقتصر على جزئيات نصية ، فمثلا « الالسنية » لا تطبق الا على قطع شعرية محدودة ، وتأخذ أبيات ، وتبرهن بها على انها وصلت الى حد . وأنا أرفض هذا رفضا مطلقا .. ذلك ان قيمة المنهجية تقاس بامكانيتها التطبيقية . فاذا طبقت المنهجية على بيت واحد ، أو على قطعة شعرية ، فما هي فائدة المنهجية ؟

طبعا ، الزملاء الفرنسيون توصلوا الى نتائج .. غير انهم يعتمدون على قطع محدودة ، مختارة ، يختارونها هم . وانا اتساءل : هل المنهجية هي التي تطبق على النصوص ، أم ان النصوص تفسر للمنهجية ؟

نرد على هذا : ان كل أدب له مميزات خاصة .. وكل أدب له سياق تاريخي خاص .. فبعد أن شاركت مع بعض الفرنسيين في تحليل أدبهم هم بأنفسهم ، انعزلت عنهم ، لانني الآن لا أهتم الا بالادب العربي ، وبالمشاكل النظرية التي أواجهها أنا في اطار الادب العربي.. لان المشاكل النظرية ، بطبيعة الحال ، واحدة. ولكن ينبغي أن تكون لكل محاولة علمية أرضية .. قاعدة للتطبيق .. وقاعدتنا ، أو أرضيتنا ، هي الادب العربي. ونحن بحاجة الى بحوث تمهيدية . فالفرنسيون ، مثلا ، وصلوا الى حدود بعيدة في بحثهم في « الصوتيات » (الفونولوجيا ، والفونتيك ، والفونولانكستيك) ضمن اختصاص دقيق .. فوصلوا الى نتائج ، وقدموا نظرية فحواها : ان الاصوات تكون « نصا ثالثا » .. هذا النص يعبر عن معان لاواعية ، أو « قبواعية » .

وما دمنا نحن بحاجة الى بحوث تمهيدية عن الصوتيات ، وعن العروض ، لا يمكن أن نصل الى مثل هذه الأبعاد .

ونظرا لخاصية الادب العربي ، والى سياقه التاريخي ، والى عبقرية لغته ومميزاتها ، فانني انعزلت عن « النظرية الاوروبية » .. أخذت منها بعض الاساليب، ودققت البعض الآخر ، وتركت بعضا منها ، وكونت منهجية خاصة أظن ان من الممكن تطبيقها على ادبنا .

هل هذا سيؤدي الى النجاح ، أم الى الفشل ؟

مهما يكن من أمر .. وحتى اذا فشلت ، فانني أظن ان هذا سيفتح أمامنا طرقا جديدة .. واذا ما قام شخص وبرهن على انني اخطأت ، وفشلت ، فانه هو الذي سيأخذ بالمهمة ، ويفتح أمامي أبوابا جديدة .

لدى الاوروبيين مؤتمرات علمية حول هذه المشاكل النظرية ، يتبادلون فيها الآراء ، ويجربون الاساليب .. الخ ... ونحن لنا حاجة بهذه المعرفة . وبودي لو نلتقي بعلماء عرب يطبقون نفس هذه المنهجية ، أو يرفضونها ، بشرط أن يفهموني لماذا قبلوها ، ولماذا رفضوها .. دون أن يعتمدوا على المبدأ القديم : « ان من جهل شيئا عاداه » ..

*** لست أدري ما اذا كان منطقيا التساؤل عن مستقبل البنيوية ، كمدرسة ، أو اتجاه . انني أتساءل وفي ذهني ما قاله أحد النقاد الفرنسيين عن الوجودية ، بأن « أحدا لا يتكلم في الوجودية الآن كما كنا نفعل في الماضي .. لا لانها ماتت ، بل لانها انتهت كحركة » ..**

ـ « البنيوية » ، كما ظهرت في الخمسينات والستينات ، انتهت هي أيضا . انتهت « البنيوية » كما عبّر عنها في الميدان الانثربولوجي ، وفي ميدان الألسنيات . أي ان الفكرة الاولى من البنيوية انتهت . وانتقلنا ، مثلا ، مع « غولدمان » الى « البنيوية التكميلية » .. الخ ... ووصلنا الآن الى ما أسميه : « البنيوية التفريعية » .

لا أستطيع أن أضع جوابا عن هذا السؤال . لماذا ؟ لان العلم ، وبالاخص الاساليب العلمية ، لها حياة قصيرة .. لان الاساليب تتطور ، وتتغير .. ويوما بعد يوم نضيف الى ما اكتسبناه نتائج جديدة .

ومن هنا ، فأنا أذهب الى الاعتقاد بأن « البنيوية » ستتغير رويدا رويدا حتى تولد أساليب جديدة ، وفروعا علمية جديدة ..

وهكذا ، لا نستطيع القول بأن لها مستقبلا ، أو ليس لها . حتما لها مستقبل ، لانها ستولد ، حتى بعد رفضها، منهجا جديدا. فكما ان العلم كعلم له مستقبل.. واذن ، فان للبنيوية مستقبلا ضروريا ، بما ستولده من فرع علمي جديد .. واما ان العلم لا مستقبل له ، فان البنيوية تنتهي .

بغداد